حول مواقف الغرب
من القضية الفلسطينية

وليد الخالدي

عندما يتحدث عربي الى غير عربي عن القضية الفلسطينية ، فغالباً ما يعترضها حائط مسدود فيما يتعلق بالحاضر . فقد يتفق الاجنبي مع العربي ، او قد يبدي عطفه وتفهمه ، فيما يختص بالماضي ، الا ان الحديث عن القضية في ابعادهـــا الحاضرة والمستقبلة يؤول بهما الى الافتراق .

فهناك من لا يتوانون عن الاقرار بان التحجج بالتاريخ الذي يقوم عليـــه الصرح الايديولوجي الصهيوني باسره ، لا يخوله حق اقامة دولة سياسية الآن ؛ وان وعد بلفور والانتداب البريطاني كانا وثيقتين غير اخلاقيتين او عادلتين ، وخيانة للوعود التي سبق اعطاؤها للعرب ؛ وان اخماد الحكومة البريطانية لابناء البلاد العرب بحد السيف تقريبا طول نصف قرن ، في حين جعلت الصهيونيين يتحكمون بموارد البلاد واستقدمتهم اليهـا باعداد كبيرة كيما يشكلوا اغلبية مصطنعة مستوردة ، كان تلاعباً بالطرق الديمقراطية ؛ وان الفلسطينيين العرب الذين رأوا طابع بلادهم بل وشكلها يتغيران تغيرا بطيئا امـــام ابصارهم بينما كانوا يجاهدون بيأس متزايد في وجه تيار قاس يتقدم نحوهم باستمرار ، كانوا يعيشون تحت وطأة كابوس لم يعرف له مثيل ولم يكن يمكن تحمله؛ وان انهاء بريطانيا للانتداب بشكل جعل حالة قصوى من الفوضى تعم بـــلادا كانت عصبة الامم قد وضعتها تحت وصايتها ، لهو عمل اقل ما يقال فيه انه لا يليق بها ؛ وان قرار التقسيم الذي اتخذته هيئة

الامم انما اقرته الجمعية العامة نتيجةً لمـــا قام به الرئيس الامريكي بصورة شخصية ومباشرة من ضغط وتحيز وارهاب ، ولهذا فانه لا يمكن ان يعتبر عكسا صادقا لرغبات الاسرة الدولية ؛ وان حرب ١٩٤٧ – ١٩٤٩ التي اجتثت اهالي فلسطين العرب من جذورهم، وشتتتهم في جهات المنطقة الاربع، ودمرت كيانهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي ، وقلبت اكثريتهم من بشر يتمتعون باحترام الذات الى متسولين يعتاشون على الحسنات التي تتصدق بها الدول ، كانت الذروة المرعبة والمتوقعة منذ وقت طويـــل لسياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

اقول ان هناك من يقرّون بهذا كله ، وبكثير سواه ، لكن ما ان يقرّوا به بصدق واخلاص، بل وبندامة ، حتى يلتفتوا لمحدثهم ويقولوا :« لكن اسرائيل هي الآن هنا» .

من الحائط المسدود هـــذا احب ان استهل درسي لاسس تفكير الغرب فيما يختص بالقضية الفلسطينية .

هذا الحائط المسدود هو بالطبع التحجج بالامر الواقع . وهـــو يتركز في جانبين : اولهما بسيط ، هو الذي تمثله عبارة « ان اسرائيل هنا » ، والآخر اكثر تعقيداً ، هو الذي تمثله عبارة « ان اسرائيل هنا لتبقى » . وهذا الجانب الثاني ذو طابع نذيري من جهة ، اي ان القول « ان اسرائيل هنا لتبقى » هو من قبيل النبوة ؛ وهو من جهة اخرى ذو طابع انذاري ، اي ان القول بذلك يعني في الواقع : « اننا نريد اسرائيل ان تبقى وسنسندها ضدكم » .

وسواء قام التحجج بالامر الواقع على هذا الجانب او ذاك واتخذ ذلك الطابع او هذا، فان القائل به يصل الى ذات النتيجة دائماً : « ان اسرائيل هنـــا » (حقيقة واقعة) ، فعليـكم لذا ان تصالحوها . «ان اسرائيل هنا لتبقى» (نذير) ، فعليكم لذا ان تصالحوها. « ان اسرائيل هنا لتبقى » (انذار) ، فعليكم لذا ان تصالحوها . فلننظر في كل من هذه الجوانب على حدة .

ان عبارة « اسرائيل هي الآن هنا » كعبارة تذكر حقيقة واقعة ، ليست محل جدال طبعاً . فما هو مثار جدال ليس الجانب الواقعي من هـــذه العبارة بل هو النتيجة التي يُطلب الينا الوصول اليها عن طريقها .

كيف يمكن للقول بانه يتوجب علينا عقد صلح مع اسرائيل ان ينتج بحكم الضرورة عن واقع وجود اسرائيـــل ؟ انه ينتج ان نحن افترضنا احد افتراضين : ينتج ان نحن افترضنا ان للحقائق كحقائق قدسيتها الخاصة ، ان علينا في الواقع ان نتقبل الحقائق كحقائق ونعتنقها على الدوام . ليس ثمة شك انه ينبغي ان نكون على دراية بالحقائق ، لكن بين الدراية بالحقائق وبين تقبلها واعتناقها بُعداً سحيقاً . وهو ينتج ان نحن افترضنا انه يتوجب ان نتقبل الحقائق بغضّ النظر عن طبيعتها ومقدماتها وان نعتنقها على الدوام. مثل هذا الافتراض لا يأخذ التاريخ البشري بعين الاعتبار : فالتاريخ البشري من اوله لآخره يمكن النظر اليه كسلسلة من الثورات على حقائق غير مرغوب فيها . بل انه لولا مقدرة الانسان هذه على ان يرفض قبول حقائق غير مرغوب فيها لـكان مجرى التاريـخ قد جف منذ طويل . ان المستوطنين الامريكيين ثاروا في اوائـــل تاريخهم على حقيقة السيطرة البريطانية غير المرغوب فيها ، والثوار الفرنسيين ثاروا على حقيقة العهد البائـد غير المرغوب فيهـــا ، وكافور ومازيني ثارا على حقيقة تجزئة ايطاليا تجزئة سياسية غير المرغوب فيها ، وملايين من البشر في آسيا وافريقيا يتمتعون اليوم بالحرية والاستقلال لانهم ثاروا على حقيقة سيطرة الاجانب غير المرغوب فيها ، وملايين سواهم ما يزالون ثائرين على حقائق غير مرغوب فيها مماثلة ، وما يزالون يدفعون ثمن ذلك غالياً بحياتهم ودمائهم .

واسرائيل ، من وجهة نظر العرب ، حقيقة غير مرغوب فيها . فالصهيونيون جاؤوا العالم العربي غزاةً ؛ جاؤوا بعشرات الالوف ، ونثروا مستعمراتهم العسكرية في مواقع ستراتيجية في البلاد ، واختبأوا اول الامر وراء القوة البريطانية ومقدرتها على الانتقام ، لكن عندما اشتد ساعدهم وجهوا منظماتهم الارهابية ضد اهالي البلاد المدنيين العزّل .

لم تعرف فلسطين منذ ايام الاشوريين والبابليين انقلابا في ساكنيها كما عرفته الآن . وللمرة الاولى في التاريخ انهار الجسر البري الذي يصل عرب آسيا بعرب افريقيا الشمالية. ولم يهرق منذ زمن الصليبيين دم عربي على تـلال فلسطين وسهولها كما اريق الآن . وفاق عدد العرب ، رجالاً ونساء واطفالاً ، الذين قتلهـــم الصهيونيون او شوهوهم في السنوات العشر منذ قيام اسرائيل ، فاق عددَهم خلال ثلاثين سنة من الجهـــاد ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي . وقد سقطت في ايدي الصهيونيين ٦٥٠ بلدة وقرية عربية عمرت قروناً ، فدمروا معظمها وفلحوا ارضها واقاموا مكانها اكواخاً جاهزة الصنع تحمل اسماء غريبة من شرقي اوربا .

لقد حارب العرب الاستعمار البريطاني والفرنسي ، وما زالوا يحاربونه . والصهيونية في نظرهم هي الاستعمار باجلى مظاهره. فهي تمثل ابشع انواعه ، لا الاستعمارَ الذي يقوم على ادارة مفروضة من فوق ، بـــل الاستعمار الذي يقوم على الاستئصال والتشتيت . فالطلب اليهم ان يعقدوا الصلح مع اسرائيل يعني الطلب اليهم ان يعقدوا الصلح مع الاستعمار . وليس العرب بأول شعب في التاريخ يرفض عقد صلح مع غزاته .

غير ان الحجة التي تقول بوجوب عقد العرب لصلح مع اسرائيل نتيجةً لواقع وجود اسرائيل ، تفترض افتراضاً ثالثاً مهماً : هو ان الصلح سيكون لفائدة العرب . فلنفترض لحظة وبقصد الجدال ان هذا صحيح . ان الامر الاساسي في هذه الحجة هـي انه ينبغي ان يكون العرب انفسهم في حال ومزاج يجعلهم يتقبلون تلك الفائدة ، كانت ما كانت ، من اسرائيل . ان بريطانيا لم يكن يمكنها ان تقبل يد الصداقة لو مدتها لها المانيا عقب دنكيرك ، ولا امريكا لو مدتها اليابان عقب بيرل هاربور . وفلسطين هي دنكيرك وهي بيرل هاربور العرب .

لكن ما هي الفائدة التي ستتأتى لنا عن مصالحة اسرائيل ؟ يقول انصـار هذه الحجة ان ثمة فوائد مباشرة وفوائد طويلة الامد . اما المباشرة فتتركز على المشاكل العملية البارزة في القضية الفلسطينية : اي الحدود واللاجئين والتعويضات .

اننا نعرف الاطار الذي تأمل الدولتان الغربيتان الكبريان الولايات المتحدة وبريطانيا ان تسويا هـذه المشاكل من ضمنه . فقد اوضح تصريح ضلز في آب (اوغسطس) ١٩٥٥ وجهة النظر الامريكية، واوضح خطاب ايدن في دار بلدية لندن في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ وجهة النظر الانكليزية . وقد ذهب خطاب ايدن الى ابعد ما ذهب اليـه تصريح ضلز ، وكان هدفه الرئيسي ايجاد حل بين مشروع التقسيم ١٩٤٧ والوضع الحاضر القائم على الهدنة. لكن النص الذي صيغ به غير واضح وغير ملزم. ومنذ ذلك الحين مالت الولايات المتحدة الى تحبيذ كسر الحصار العربي على العقبة ، ومالت هي وبريطانيـا الى تحبيذ نزع السلاح عن غزة ، وعن سيناء ان امكن .

ان « الفوائد » التي تقدمها اسرائيـــل انما تقع ضمن هذا الاطار . فهي لن ترضى الا بتعديلات ثانوية في الحدود ، ولن ترضى بها الا على اساس متبادل؛ وهي لن تعيد الا عدداً

محدوداً من اللاجئين؛ وهي لن تدفع الا تعويضات رمزية . وأقل ما ستطلبه لقاء ذلك هو اعتراف العرب بها اعترافاً مبنياً على الامر الواقع وكفهم عن مقاطعتها . ولن نحتاج الى كثير من الخيال لندرك لصالح من ستكون فوائد هذه التسوية في الواقع .

هذه هي « الفوائد » المباشرة . اما الفوائد الطويلة الأمد فهي ، على حدّ قول من يذهب هذا المذهب ، ما يلي :

١ — سيجني العرب فوائد من الرساميل والطرق التكنيكية الاسرائيلية . لو سلمنا جدلاً « بتقبّل » العرب لذلك (وليس الحال كذلك) فانهم ليسوا بحاجة الى الرساميل الاسرائيلية . ان مشكلتهم ليست اجتذاب الرساميل من الخارج بقدر ما هي توزيع الرساميل التي في حوزتهم توزيعاً صالحاً . يضاف الى هذا انهم ان احتاجوا الى رساميل من الخارج فهناك مصادر اخرى غير اسرائيل بوسعهم ان يحصلوا عليها منها . كما انه من المشكوك فيه ان تكون لدى اسرائيل رساميل تزيد عن حاجتها وتستطيع تقديمها بكميات كبيرة . اما من حيث الخبرات التكنيكية فان هذه ليست وقفاً على اسرائيل ، ومن المشكوك فيه ايضاً ان لدى اسرائيل مواهب تكنيكية تزيد عن حاجتها . زد على هذا ان العرب جادّون في تدريب خبرائهم الفنيين ، فهناك في العام الواحد عشرة آلاف عربي يتلقون تدريباً فنياً في الخارج ، ناهيك عمن يتلقون مثل هذا التدريب في العالم العربي .

٢ — ستقوم اسرائيل بدور الوسيط بين العرب والغرب . وهذه حجة لا تقوم على اساس : فاسرائيل « وسيط » لكن من نوع آخر .

٣ — سيكون بوسع العرب ان يستثمروا الاعتمادات التي ينفقونها الآن على التسلح ، وينفقوها على مشاريع التنمية . لكن الوضع الدولي يجعلنا نشك في ان مستوى التسلح في العالم العربي سيتأثر تأثراً جذرياً نتيجة انعقاد صلح مع اسرائيل .

٤ — سيتمكن العالم العربي من مواجهة الاتحاد السوفياتي ككتلة واحدة. وهذا بالطبع ليس صحيحاً بالضرورة . لكن حتى لو كان صحيحاً فانه من المشكوك به انه سيروق للرأي العام العربي المحايد الذي يدين به غالبية العرب .

٥ — سيؤول الصلح مع اسرائيل الى الحدّ من الحرب الباردة في المنطقة . وهذا امر مشكوك فيه ، فان تم الصلح مع اسرائيل فان الدول الغربية ستدعو اسرائيل للانضمام لحلف الاطلسي ، وهي بادرة لا شك ان روسيا ستجيب عليها بشكل مسرحي .

٦ — ان الصلح مع اسرائيل سيؤهل العرب للحصول على قروض ضخمة من الولايات

المتحدة وسواها من الدول الغربية . لكن بعض البلدان العربية قد وجدت مخرجاً من هذه المعضلة ، وبعضها الآخر ينجح في الحصول على قروض من الولايات المتحدة اضخم مما كان يحصل عليها دون اضطراره للقبول بهذا الشرط .

٧ – ان الصلح مع اسرائيل سيحمي العرب من العدوان الاسرائيلي وبصورة خاصة من غاراتها الانتقامية العنيفة . ان العرب يعتقدون ان خير حماية لهم ضد العدوان الاسرائيلي هي انخراطهم في وحدة سياسية اكبر ، مقروناً بمزيد من الحذر والتنبه على الصعيد العسكري ومن المبادرة في الحقل الدبلوماسي . يضاف الى هذا ان هناك مقابل الحماية الآنية من الغارات الانتقامية ، فترة الراحة التي سيمنحها الصلح للصهيونية لكي تشن حملة أعنف على العرب عندما يحين الوقت المناسب .

في هذه النقطة الاخيرة يكمن النقد الرئيسي ، كما يراه العرب ، للأسس المنطقية لحجة الامر الواقع ، وخاصة لذلك الجانب منها الذي يزعم بأن العرب سيجنون فوائد من مصالحتهم لاسرائيل .

تقوم هذه الحجة في التحليل الاخير على افتراضين : ان الصهيونية تتماشى مع القومية العربية ، وان اسرائيل كتعبير عن الصهيونية هي نهاية المطاف ، ان الصهيونية في الواقع قد حققت ذاتها ضمن حدود اسرائيل القائمة .

لا يستطيع العرب ان يقبلوا هذين الافتراضين ، بل انهم لا يرون كيف يمكن لأي انسان ان يعتنقها ان لم يكن قد اعمى عينيه عن الحقائق . وموقفهم هذا لا يقوم على خرافات او مخاوف غامضة : فهم قد قاسوا من الصهيونية بشكل مباشر طوال اربعين عاماً ، ولهم الحق في ان يقولوا للعالم بأسره : « اننا نعرف ما نقول وانتم لا تعرفون . اننا نحمل جراح الصهيونية في ارضنا وفي بيوتنا وفي جسومنا وفي قلوبنا » .

ان في صلب الفلسفة الصهيونية فرضاً يقول بأن العرب عنصر انساني « قابل للانفاق والتبذير » . ولو ان نظرة الصهيونية للعرب اتسمت بذات الاكبار الانساني الذي تتسم به نظرتهم لليهود انفسهم كبشر ، لانهار الى الحضيض بنيان الصهيونية العقائدية بأكمله ، او على الأقل بنيان الصهيونية العسكرية والسياسية . فالصهيونية لم يكن ممكناً بقاؤها الا عن طريق التأكيد بأن لليهود من الحقوق الانسانية ما ليس للعرب . وهذا الموقف

الصهيوني كان في اساس فكرة « الوطن القومي » ، وكانت ذروته خروج العرب في ١٩٤٨ . وهذا الموقف هو الذي ارتكب مجازر دير ياسين وشرفات والقبية ونحالين ووادي فوقين وكفر قاسم وخان يونس، وفيها جميعها وصلت هذه النظرة العنصرية ذروتها المنطقية .

لقد علمتنا اربعون سنة من اختبار الصهيونية ان الطريقة الصهيونية طريقة شاملة ، ستراتيجية . ولنأخذ مثلاً على ذلك المستعمرات « الزراعية » التي أنشأها الصهيونيون : فهم لم يقيموا مجرد منشئات زراعية : صحيح ان المزارع كان لها هدف زراعي ، لكنها ايضاً كانت مراكز عسكرية قوية ؛ وكانت أماكن عرض يعرضها الصهيونيون ليدللوا على انهم معنيون « بانقاذ الارض » ؛ وكانت سبل دعاية مهمة لجمع التبرعات من الخارج ؛ وأمدتهم بفرصة للافتراء على الطرق الزراعية البسيطة التي يعتمدها جيرانهم العرب الأقل حظاً منهم مادياً ؛ وكانت أماكن تدريب سري للدولة الجديدة؛ وكانت لها غايات سياسية تقوم على الادعاء بأكبر مقدار ممكن من الا[illegible] استعداداً لأي مشروع تقسيم في المستقبل بغية اقامة دولة يهودية في البلاد .

وقد صورت الصحافة الاجنبية الهجرة اللاشرعية للاجئين اليهود بأنها محاولة لانقاذ البقية التعسة من يهود اوربا ، لكن الواقع (كما تبين اثناء محاكمة كاستنر) هو انه كانت هناك خطة عنيدة هدفها اختيار فئة معينة من الشبان لارسالهم للبلاد، وانها كانت موضع التنفيذ حتى في اطار غرف الغاز النازية الرهيبة . وفي فلسطين كان هدف حركة الهجرة اللاشرعية زيادة عدد الصهيونيين الذين في سن عسكرية ، وتقويض سياسة بريطانيا التي اعلنتها في ١٩٣٩ ، واحراج بريطانيا ووضعها في موقف مخزٍ في نظر العالم .

في ١٩٤٩ ابتدأت في رودس محادثات بين البلدان العربية والصهيونيين . وفي ايلول (سبتمبر) من العام ذاته كتب الجنرال يادين (وكان اذ ذاك رئيس هيئة اركان الجيش الاسرائيلي) مقالاً ، لم يشر فيه الى « محادثات رودس » ، بل أسماها « عملية رودس » ، وكان الدرس الذي تكشفه هذه « العملية » هو « ان الوسائل التي تستعمل في الستراتيجيا تختلف غالباً عن الوسائل التي تستعمل في التكتيك — فالستراتيجيا تختار احياناً وسائل سياسية لتحقيق ظروف تساعد على الوصول الى قرار تكتيكي . وهذه الوسائل إن نجحت وفرت مقداراً كبيراً من الدم والعرق » .

ألا يحق للعرب ان يتساءلوا اية « وسائل سياسية » سيمنحها الصلح للستراتيجيا

الصهيونية الجديدة في اسرائيل ؟

وهناك ايضاً سجل نمو الصهيونية المستمر وانتهازيتها سياسياً وعسكرياً . ففي ظرف جيل اصبحت اسرائيل ذات ابعـــاد شاسعة : في ١٩٢٥ كان الصهيونيون أقلية ضئيلة في فلسطين ، وفي ١٩٥٦ كانت الوحدات العسكرية الاسرائيلية تجوب قناة السويس والبحر الاحمر . وقد نما الوطن القومي من وثيقـة على الورق (هذا ما كان عليه وعد بلفور في ١٩١٧) الى بلاد تستطيع ان تضع ربع مليون شخص مسلح في الميـدان في ظرف ٤٨ ساعة وتهدد بالدمار اكثر من عاصمة عربية واحدة . لقد رأينا الصهيونيين يستغلون عهد الانتداب البريطاني فيحصـلون على ٧ في المائة من فلسطين ، هي الجزء الستراتيجي من البلاد . ورأيناهم يستغلون العطف العالمي على مأساة اليهود خلال الحرب فيحصلون على ٥٥ في المائة من فلسطين عن طريق قرار التقسيم . ورأينـــاهم يستغلون الفوضى التي خلفها انسحاب الانتداب في ١٩٤٨ فيحصلون على ٧٧ في المائة من فلسطين .

لقد رأينا كيف كانت نظرتهم لمفاوضات الهدنة . وقد كان ابان هذه المفاوضات ان نجحوا ، بعزلهم للاردن ثم بتوعدهم اياها ، في « تحقيق ظروف تساعد على الوصول الى قرار تكتيكي » ، والحصول على ٤٠٠ كيلو متر مربع بدون اطلاق رصاصة واحدة في ما يعرف بالمثلث العربي . وطوال الفترة ما بين ١٩٤٩ و ١٩٥٦ ظلوا يعتدون باستمرار على المناطق المجردة من السلاح ، على الحدود السورية في الشمال ، وقرب العوجا في الجنوب ، وفي ضواحي القدس في الوسط . ولم يكونوا يبغون من ذلك كله سوى غراسة الاشجار طبعاً ! لكنهم انقضوا في ١٩٥٦ على مصر دون ان يدعوا اي قصد زراعي . ووقف بن غوريون في الكنيسيت في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ يقول : « لقد كانت لنا ثلاثة اهداف رئيسية في عملية سيناء : القضـــاء على قوات كانت تحاول اخضاعنا باستمرار ؛ وتحرير ذلك الجزء من الوطن الذي يحتله الغزاة ؛ وضمان حرية الملاحة في خليج ايلات (العقبة) وايضاً في قناة السويس . ومع ان الهدف الاول والرئيسي هو وحده الذي حققناه حتى الآن ، فاننا واثقون ان الهدفين الآخرين سيتحققان ايضاً تحقيقاً كاملاً » .

علينا ان نتذكر انه عندمـــا كان بن غوريون يتلفظ بهذه الكلمات كانت القوات الاسرائيلية تحتل فعلاً سيناء وغزة ، لكن بن غوريون مع هذا لم يعتبر ان الهدف الثاني

من الحملة ، هدف « تحرير ذلك الجزء من الوطن الذي يحتله الغزاة » ، قد تحقق . اي « جزء » من اي « وطن » يعنيه بن غوريون ؟ وقال ايضاً : « ان قواتنا لم تعتدِ على الاراضي المصرية بل انها لم تحاول ان تفعل ذلك » . على اراضي من اذاً اعتدت ؟

ان بن غوريون لا يقصد بهذا ان يكتب شعراً ؛ انه يتكلم كرئيس لوزراء اسرائيل . كانت جيوشه تحتل سيناء فعلاً – فهل يمكن ان تعني كلماته شيئاً الا ان اسرائيل لا تعتبر سيناء جزءاً من الاراضي المصرية ؟ قد نجد الجواب فيما يلي : « ابتدأت تجارة اسرائيل البحرية في البحر الاحمر قبل ٣٠٠٠ سنة زمن حكم الملك سليمان . وكان ميناء ايلات اول ميناء عبري في عهد ملوك يهوذا . وقد قامت حتى منتصف القرن السادس حسب التقويم الاوربي – اي حتى ١٤٠٠ سنة خلت – دولة عبرية مستقلة في جزيرة يوتفات التي حررتها بالامس الاول قوات اسرائيل الدفاعية . وقد سميت هذه الجزيرة فيما بعد تيران ، وهي تحرس الممر ما بين البحر الاحمر جنوباً وايلات شمالا . كما ان المصريين اقاموا قوة مسلحة ومدفعية ثقيلة قادرة على ضرب أية سفينة عبر المضيق عند الشاطىء المقابل للجزيرة في المكان الذي كان يسمى حتى يومين مضيا شرم الشيخ واصبح اسمه الآن ميفراتس شلوم » .

فاذا كان بالامكان « تحرير » يوتفات وميفراتس شلوم على هذا الشكل في الجنوب ، فان بالامكان ايضاً وبالمنطق ذاته تحرير مناطق تقع الى غربي اسرائيل وشمالها كانت قبل ٣٠٠٠ سنة جزءاً من مملكة سليمان . يقول الحاخام ايزاكس الواسع الاطلاع في كتابه « الحدود الصحيحة للاراضي المقدسة » ان الحد الشمالي لارض الميعاد هو جبل حور ، ويعتقد ان جبل حور هو الى القرب من جبال طوروس . ان هذه الفكرة المبهمة في عقول الزعماء الصهيونيين عن اسرائيل وجغرافيتها هي التي تجعل المستقبل ينذر بالخطر ، خاصة ان ربطناها بما نعرفه عن فلسفة الصهيونية وانتهازيتها في تطبيقها لها .

وهناك امر آخر ينذر ايضاً بالخطر ، هو علاقة اسرائيل باليهود في الخارج . فبن غوريون يتمنى ان تستوعب اسرائيل هؤلاء اليهود جميعاً : فمبرر وجودها بالنسبة له هو انها تسهل « ضم شمل » اولئك الذين يعيشون « في المنفى » . والحكومة الاسرائيلية والمنظمة الصهيونية تعملان بجدّ وتعمّد على اقتلاع الجاليات اليهودية من اوطانها في

الاماكن المختلفة من العالم وعلى نقلها الى اسرائيل . وقد دخلها في ١٠ سنوات منذ قيامها ٩٠٠ الف من هؤلاء ، وما يزال المهاجرون يأتونها بمعدل ٥٠ الف الى ١٠٠ الف كل عام . ويزعم الصهيونيون ان بوسع اسرائيل ان تستوعب جميع المهاجرين اليها ، وانه لا خطر من توسعها لانهم (كما قال شاريت رئيس الوزراء الاسبق) « لا يفكرون في التوسع افقياً وانما في التوسع عمودياً » . لكن ما يزال على شاريت ان يفسر كيف استطاعت القوات الاسرائيلية ان تصل « عمودياً » الى يوتفات وميفراتس شلوم في اقصى الجنوب .

فواضح للعيان ان سياسة المجال الحيوي هي وحدها التي تستطيع ان تأخذ على عاتقها مشكلة المهاجرين الجدد .

يبقى هناك العامل السيكولوجي . فاسرائيل لم تبعث عصر الرخاء والهناء الى الوجود، والمشكلة اليهودية ما تزال قائمة الآن كما كانت قائمة قبل ١٩٤٨ بل وقبل ١٩١٧ – وكل صهيوني يدرك ذلك في قرارة نفسه . واعتقد ان شعوراً عميقاً بالخيبة والفشل يكمن وراء ما في اسرائيل من قلق ، وان هذا الشعور بالخيبة يدفعها الى التعويض ويؤول بها لعرض العضلات والتبجح بالقوى العسكرية .

قلنا سابقاً ان التحجج بالامر الواقع غالباً ما يعبّر عنه بعبارة « ان اسرائيل هنا لتبقى » ، وانها ذات طابعين : نذيري او نبوي ، وانذاري او تهديدي .

ليس هناك ما يقال عن الطابع النذيري غير قليل . فليس بوسع الانسان ان ينظر الى بذور الزمان ويتنبأ اي منها سينمو واي سيموت . والشرق الادنى خير مكان يرى المرء فيه بطلان القوى الدنيوية . زرت قبل سنين قلعة دوفورت الصليبية ، وأذكر اني عندما وقفت على ما تبقى من شرفاتها اخذت افكر: هاأنذا ، واحد ربما من احفاد اولئك الذين بنيت هذه القلعة لمحاربتهم ، واقف أتفرج على انهيار هذا الحصن العظيم . وعندما نظرت عبر الوادي الى الجنوب وشاهدت الابراج المشيدة بالاسمنت في مستعمرة المطلة الصهيونية على بعد ميل واحد فحسب ، لم يكن ما اختلج في فؤادي شعوراً بالكراهية او بالخوف ، بل كان شعوراً بالأمل .

اما الطابع الانذاري فكل ما يمكن ان نقوله بصدده هو ان الحكومات الغربية التي تحمّل تلك العبارة هذا المعنى لها ملء الحق ان تقول : « ان اسرائيل هنا لتبقى لأننا

نريدها ان تبقى وسنحارب الى جانبها ضدكم » . لكن ما ليس لها الحق ان تفعله، بعد ان تقول هذا ، هو ان تسعى لكسب صداقة العرب ولاجتذابهم الى صفها ولاقناعهم بأفضلية الآراء التي تعتنقها .

كنا فيما مضى من هذا المقال ننظر الى المشكلة من جانب واحد فقط ، هو الجانب الذي يُزعم انبثاقه عن رفض العرب مواجهة الامر الواقع .ولا شك ان هذه وجهة نظر واحدة نحو الوضع ، وقد حاولنا اظهار محدوديتها .

لكن هذه ليست وجهة النظر الوحيدة ، وليست خير الوجهات للوصول الى حل . لقد اصبح معتاداً التفكير بالمشكلة العربية الصهيونية كمشكلة قائمة بين طرفين ، بين العرب والصهيونيين. غير ان البلدان الغربية، ونقصد بها الولايات المتحدة وبريطانيا ، لا تستطيع ان تدعي بسهولة دور الحَكَم . نقول هـذا ولا نفكر فحسب بالمساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي قدمتها هاتان الدولتان في مناسبات مختلفة وما تزال تقدمها للصهيونيين والتي لولاها لما استطاعت اسرائيل القيام اساساً ولما استطاعت البقاء ، انما نفكر ايضاً بالمعنى الاعمق الذي تبدو الصهيونية ذاتها بموجبه عارضاً من اعراض اعتلال غريب في المجتمع الغربي .

اذاً فلننظر الى الجانب الآخر من المشكلة، ولندرس لا موقف العرب تجاه الامر الواقع فقط ، بل ايضاً موقف الغرب تجاه بعض الحقائق غير المرغوب فيها .

اول ما يجيء في الخاطر مسألة الضمانات . تقول الدول الغربية انها ستضمن هذه الحدود او تلك وتنتظر ان يجد العرب في ذلك تطميناً كافياً . ويظهر ان هذه الدول لا تستطيع ان ترى الحقيقة غير المرغوب فيها ، وهي ان وعودها بهذا الشأن لا تلقى تصديقاً كبيراً من قبل العرب : فوعد بلفور والانتداب ذاتها أوصيا بريطانيا بحماية حقوق عرب فلسطين المدنية ومقامهم ؛ وبريطانيا أعلنت في ١٩٣٩ انها ستضع الكتاب الابيض موضع التنفيذ رغم انه اصطدم برفض كلا الفريقين ؛ وروزفلت وعد ابن سعود قبيل انتهاء الحرب بأن الولايات المتحدة لن تتبع فيما يتعلق بفلسطين « سياسة معادية للعرب » . ومنذ زمن غير طويل شهدنا العدوان الثلاثي على مصر ، ورأينا ان دولتين غربيتين كانتا قد أعلنتا انهما لن تسمحا بأن يجري اي خرق للحدود العربية الاسرائيلية قامتا هما بخرق الحدود

المصرية من ناحية بينما هاجمتها اسرائيل من ناحية اخرى . وطبيعي ان اعمالاً كهذه يصعب ان يلفها النسيان سريعاً ، خاصة ان كان وراءها سجلّ تاريخ طويل .

وفي خاطرنا ايضاً احجام دول الغرب ، وخاصة امريكا ، عن الادراك انه ليست لها ولم تكن قط لها الحرية التامة في تخطيطها لسياستها بخصوص فلسطين . نعرف ان هذه قضية دقيقة ، لكنها قائمة ولها علاقة ماسة بمستقبل فلسطين . في كل بلد ديمقراطي يتوجب على الرأي العام ان يؤثر في السياسة الخارجية ، وهذا ما يحصل بالفعل . غير ان ما امامنا في هذه الحال هو حركة دولية مركزية التنظيم لها مطامع اقليمية في الشرق الاوسط ، تحاول ان تعبىء يهود امريكا ، وهم في الغالب غير صهيونيين ، ليضغطوا على حكومة البلاد كي تتبع سياسة هي في كثير من الاحيان ليست في صالح البلاد نفسها . نعرف ان البعض يقول ان مسألة النفوذ اليهودي وتأثير اصوات اليهود الانتخابية ككتلة متراصة على القرارات الامريكية مسألة تحتمل جدالا ، لكن المهم هنا ليس وجود هذه الكتلة او عدم وجودها ، بل هو ان السياسيين الامريكيين يعتقدون فعلاً بوجود هذا النفوذ وتلك الكتلة وتأثيرها . يضاف الى هذا ان تأثير الصهيونية المباشر على الجهاز السياسي الداخلي في امريكا تأثير ملحوظ ، كما يتبين من مذكرات فورستال .

يرتبط بهذا موقف الصحافة . انا لا اؤمن بأن الصهيونيين يتحكمون بالصحافة الامريكية كلياً ، لكني ارى ان اطلاع غالبية محرري الصحف على القضايا العربية محدود او انهم لا يعبأون بها ، وان عدداً من انصار الصهيونية او الذين يعطفون عليها ينتهزون الفرصة فيموّنون الصحف بالآراء . فتكون النتيجة ان تميل الاخبار في معظم الاحيان الى الجانب الصهيوني . وهناك استعداد لدى الجمهور لتقبل هذا الميل للجانب الصهيوني ، وليست اصوات الاحتجاج التي يرفعها المطلعون على وجهة النظر العربية الا قطرة في بحر ولا يمكنها ان تؤثر في موقف المحررين . فتتكون بالتالي طائفة من الافكار في اذهان القراء ، وهذه بدورها تستدعي ان تُبرز الصحافة دوماً الوجهة الصهيونية ، فيستحيل على الاخبار التي ليست لصالحها ان تتغلب على هذه الحلقة المفرغة . ويجب الا ننسى اثر الاعلانات ، ولا كون بعض المحررين النافذين ذوي ميول صهيونية واضحة .

هذا بعض ما قصدنا اليه عندما قلنا ان الحكومة الامريكية لا تملك الحرية التامة في

تخطيطها لسياستها في الشرق الاوسط . لكن في خاطرنا ايضاً امراً آخر على الامريكيين والانكليز ان يجابهوه : ذلك هو المدى الذي للصهيونية فيه جذور عضوية في وجدان الغرب . ولسنا نقصد بذلك اللاسامية ، التي قامت في اوربا في القرن التاسع عشر وكانت لها مقدماتها في الحوار القديم ما بين المسيحية واليهودية ، بـــل نقصد ظاهرة الصهيونية الامية او غير اليهودية التي لعلها اهم سلاح في يد الصهيونية.

تقوم الصهيونية الامية على مزيج غريب من العوامل الدينية والانسانية والعاطفية والاجتماعية . وهي في صلبها طائفـــة من المفارقات للعلاقات اليهودية الامية : للحب والكراهية، للعطف على المظلوم والنفور من غير المألوف، للاحساس بالاثم نتيجة اساءات ماضية والامل بالمغفرة نتيجة اصلاح الحال في المستقبل، للامتنان وفراغ الصبر ، للرهبة والاحتقار. والصهيونية الامية هي السبيل الذي يُلجأ اليه لحل هذا التوتر الداخلي . ولعل خير مثال على ذلك خطاب اللورد بلفور في مجلس اللوردات في ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ دفاعاً عن وعده .

واول ما يأتي بالبال في صدد الصهيونية الامية كمصدر تخطيط السياسة بشأن فلسطين هو ان لا علاقة لهـــا بالوضع في العالم العربي . فلكي تنجح سياسة الغرب في العالم العربي عليها ان تكون مبنية على الوضع الحقيقي فيه . فلا يمكن لها ان تكون مبنية على الوضع الذهني الشخصي لدى ابناء بريطانيا والولايات المتحدة ، مهماً كان معقولاً او مشروعاً سيكولوجياً . واذ كانت سياسة بريطانيا ، ومن بعدها امريكا ، حول القضية الفلسطينية مبنية في الاربعين سنة الاخيرة على الوضع الذهني المسمى بالصهيونية الامية ، وفُرضت فرضاً على الوضع كما هو في العالم العربي ، وصلنا الى هذه الفوضى الفظيعة .

ليس هناك ما يدل على ان الصهيونية الامية لم تعد العامل الرئيسي في نظرة الغرب الى العالم العربي . وليس هنـــاك ما يدل على ان الغربيين أخذوا يتساءلون : ألم نُستغل ؟ هل جرفتنا العاطفة ففعلنا ما وجب علينا الا نفعله ؟ هل الأسس التي تقوم عليها الصهيونيـــة صحيحة مشروعة ؟ هل اسرائيل حل فعلاً للمشكلة اليهودية ؟ هل يمكن الوصول الى حل حقيقي للمشكلة اليهودية عن طريق تسوية سياسية كاسرائيل ؟ الى اي حد علينا ان نستمر في مساعدة هذه الدولة ؟ هل علينا ان نظل نغدق عليها الاموال بدون ان نعرف حقـــاً

الاتجاه الذي نسير فيه ؟ هل اسرائيل حقاً وفي النهاية لصالح اليهود او العرب او الغرب او تطور المنطقة او السلام العالمي ؟

يبدو لنـــا انه عندما يواجه الغرب هذه الحقائق ويسأل ذاته هذه الأسئلة بصدق وجرأة ، عندئذ فقط نستطيع ان نقول انه ينظر الى المشكلة كما يجب ان ينظر اليها .

ويقترح البعض طريقاً لحل المشكلة الفلسطينية هي معالجتهـــا جزءاً جزءاً : فان تم استيطان اللاجئـــين زالت اكبر عقبـة تعترض الحـــل . لكن المشكلة ستظل على ما هي عليه من خطورة حتى ان تم استيطان جميع اللاجئين . فاللاجئون ما هم الا الدليل الخارجي على الجريمـة ، الذي يريد البعض ان يسوّوه ويزيحوه عن النظر – لكن جريمة فلسطين ذاتها لن يزيحها عن الضمير العربي شيء .

ان حل المشكلة الفلسطينية لن يتـأتى عن استيطان اللاجئين ولا حتى عن العودة الى مشروع التقسيم ١٩٤٧ . الحل الصحيح الوحيد هو الذي يفكر في المستقبل البعيد، ويأخذ بعين الاعتبار جميع مصالح اليهود داخل فلسطين وخارجها ، وجميع مصـــالح العرب ، وجميع مصـــالح الغرب داخل العالم العربي وخارجه ، وجميع مصالح المنطقة ، وجميع مصالح السلام العالمي .

من هذه الوجهة ، ثمة طريق واحدة تتماشى مع هذه الاهداف ومع المُثُل التي تمثلهـا الدول الغربية . وهذه الطريق صعبة بالطبع ، وأكثر صعوبة بكثير من فكرة معالجـــة القضية جزءاً جزءاً ، وسيقوم في وجهها الوضع العاطفي والاجتماعي والسياسي في الغرب، وهو الوضع الشديد التعقيد الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

لكن اذا كان الغرب يرى من الواقعي ان يتوقع عقدنا صلحاً مع اسرائيل ، فنحن نرى من الواقعي ان نتوقع تغلبه على هذه الاعتبارات العاطفية والاجتماعية والسياسية .

ان على الولايات المتحدة وبريطانيا واجباً اخلاقياً واضحاً ، هو حل المشكلة الصعبة التي أوجداها هما . وهمـا يتمتعان على عكسنا بوزن وثقة وموارد ، وفي ايديهما زيادة على هذا ، نظراً لاعتماد الصهيونية عليهما ، مفتاح بالغ الاهمية .

هذه الطريقة التي نقترحها تقوم على الاعتراف بأن جوراً فظيعاً قد ارتكب ، وان هـــذا الجور يحمل بين طياته بذوراً لمآسي أفظع في العالم العربي ، وأنه لا مجال في العالم العربي لقوميتين ديناميتين على طرفي نقيض، وأنه لا بد من الاختيار بين هذه وتلك ، ومن اعادة النظر اصلاً في مبدأ السيادة الاسرائيلية .